تعقـــــيب

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية والأسس الدينية للحركة الصليبية

لقد حظى موضوع الحركة الصليبية بكثير من الدراســـات التى حاولت جادة البحث فى أصول فكرة الحركة الصليبية وما نشـــأ عنها من حملات وحروب استمرت لقرنين من الزمان وأصبحت أحـــد المعالم البارزة فى تاريخ العصر الوسيط · وقد ســـاهم فى هذه الدراســـات عديد من المؤرخين والمفكرين المسلمين والمسيحيين على الســـواء ، كل يحاول من وجهة نظره ووفقا لخلفيته الدينية والثقافية أن يحلل الفكرة الصليبية ويعلل نشأتها ويبحث عن أسـباب لاستمرارها ويبحث أيضـا عن مبررات لفشلها فى تحقيق أهدافها · كما اهتمت بعض الدراســـات الأخرى بتقييم الحركة الصليبية وتحديد مكانها داخـــل الاطار العـــام للتاريخ الأوربى فى العصر الوسيط من ناحية ، والتعريف بدورها وأثرها فى توجيه العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى لفترة طويلة من الزمان من ناحية أخرى ·

والكتاب الذى قمنا بترجمته هنا لا يخرج عن هـــذا الاطار الا أن المؤلف هـذه المرة ليس مسلما أو مسيحيا ، ولكنه يهودى من اسرائيل ، وهـــذا يضفى على عمله أبعـــادا جـديدة غير مألوفة فى الكتابات الاسلامية والمسيحية عن الحركة الصليبية · فموضوع الحركة الصليبية من الموضوعات التى اثارت حســـاسية المسلمين والمسيحيين لقرون من الزمان ، ولا نكون مغالين اذا قلنا أنهـا كدرت صفو العلاقات الاســـلامية المسيحية لفترة طويلة · ولهذا لم تخل الكتابات الاســـلامية والمسيحية

من اشارات تعكس خليفة الكاتب وثقافته الدينية · والحقيقة أن موضوعا حساسا كهـذا يجعل من الصعب على المؤرخ ، مسيحيا كان أم مسلما ، أن يلتزم بالموضـوعية العـلمية فى معـالجته له الا أنه لا ينفى وجـود هـذه الموضـوعية لدى بعض المؤرخـين · ولهـذا فقـد يظهر بين الحين والآخر ما يعكس خلفية المؤرخ · ونستطيع ان نقول بشـكل عام ان معظم الكتاب المسلمين الذين أرخـوا للحروب الصليبية أو كتبـوا عنها التزموا عن حق بموقف الدفاع هـذا فى الوقت الذى تأرجحت فه كتابات المؤرخين المسيحيين بين اتخـاذ مواقف التبرير أحيانا والادانة للحركة الصليبية أحيانا أخرى ·

ومؤرخنا ، هذه المرة ، ليس مسلما أو مسيحيا · وهـذا يعنى أنه عاطفيا لا ينتمى الى أى من الطرفين صـاحبى النزاع ، وأنه قد تم له التحرر من قيود هذا الانتماء ، فهو ليس فى حاجة الى تبرير ما حـدث أو الحكم بالادانة أو اتخاذ موقف دفاعى وان كان هذا لم يمنع الكاتب من التعبير الحر عن رأيه واتخاذ وجهات نظر معينة طالما أن هذا لم يخرج به عن اطـار الموضوعية العلمية المطلوبة فى البحث التاريخى · ونحن نرى أن هذا قد تم فى صـورة مرضية فى هذا العمل الذى ألفه الأستاذ يوشع براور الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس فقد قدم الكاتب دراسـة تحليلية متكاملة للفكرة الصليبية وتطورها وأظهر فى ثنايا عمله كثيرا من صور الاحتكاك الثقافى والحضارى بين عالم الصليبيين وعالم الشرق الاسـلامى · وهو وان اتفق مع المؤرخين المسلمين والمسيحيين فى وصف كثير من الاحداث الرئيسية المتعلقة بالحمـلات الصليبية والظروف التى نشأت فيها الا أنه يضفى على تحليله التاريخى عناصر غابت من ادراك المؤرخين المسلمين والمسيحيين ، أو لنقل أنها ربما لم تكن موضع اهتمامهم ، ولذلك أغفلوها فى ابحاثهم الخاصـة بالحركة الصـليبية ونحاول فى الصفحات التالية ابراز أهم هذه العناصر ·

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية

من أول الأمور التى اهتم بهـــا المؤرخ براور فى تحليله محاولته تحديد ما نسميه بالموقف اليهودى وهو أمر ذو شقين الأول : تحديد الموقف الصليبى من اليهود سواء فى الدول الأوربية ابان ظهور الحركة الصليبية أو الموقف الصليبى من يهود فلسطين بعد وصـــول القوات الصـــليبية الى الشرق وتأسيسها للمملكة الصليبية فى القدس · والشق الثانى هو تحديد موقف اليهود من الحركة الصـــليبية وتحديد الدور الذى لعبـــه اليهود فى هذه الفترة ايجابيا كان أم سلبيا · ومن الواضح هنا ان خلفية المؤرخ وثقافته اليهودية قد أملت عليـــه ضرورة البحث فى الأوضـــاع اليهودية فى فترة الحروب الصليبية ودراسة هذه الأوضـــاع فى الدول الأوربية التى تزعمت فكرة الحركة الصليبية وفى الشرق الاســـلامى · ولا شك ان هـــذا جانب من الدراســـات التى لم تجذب اهتمام المؤرخين المســـلمين والمســـيحيين للحـــركة الصـــليبية وهنـــا يجب أن نشير الى أن معظم الدراســـات المتعلقة بالحروب الصليبية وتاريخها لم تعالج هـــذا الموضوع الخاص باليهود داخل اطار الدراسة التاريخية أى لم تعالجه ضمن معالجتها الكلية للحروب الصـــليبية وان كنا لا ننكر انه قد عولج بشكل أو بآخر فى اطار دراسات أخرى كالدراسات الخاصـــة بالعلاقات اليهودية المسيحية عبر العصور بما فيها فترة الحروب الصليبية(١) أو الدراســـات الخاصـــة بتاريخ اليهود والتى افردت فصـــولا للتاريخ اليهودى فى العصر الصليبى(٢) أو الدراسات الخاصة بظاهرة المعـــاداة للسامية · اذ عادة ما يفضـــل المؤرخون اليهود بالذات منـــاقشة الموقف الصـــليبى من اليهود ضـــمن الموضوعات المتعلقة بتاريخ المعـــــاداة للسامية(٣) · والحقيقة ان هذه ظاهرة لا تقتصر فقط على المؤرخين اليهود ولكنها تشمل ايضـــــا بعض الكتاب المسيحيين الذين انشغلوا بالتاريخ

للمعاداة للسامية وأفردوا فصـولا فى كتاباتهم لمعالجة الفكرة الصليبية كجزء من تاريخ المعاداة للسامية(٤) ٠

وبصرف النظر عن طريقة المعالجة فان غالبية المؤرخين يتفقون على أنه مع بداية الحروب الصليبية ، التى كان هدفها الأول المسـلمين فى فلسطين والشرق عامة ، ظهر عنصر جـديد ومأساوى فى تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية فقد كانت الجماعات اليهودية فى أوربا أول من عانى من ظهور فكرة الحركة الصليبية ٠ وقد بدأت هذه المعاناة فى أوربا ذاتها وقبل ان تصل الجيوش الصليبية الى الشرق الاسـلامى اذ اثارت فكرة الحرب الصليبية المشـاعر الدينية لدى الجمـاهير الأوربية المسيحية وشحنتها بالعاطفة الدينية المتطرفة وقد صور قادة الحركة المسلمين فى صورة الكفرة أعداء المسيح والمسيحيين واصطدمت هذه الروح الدينية الجديدة والمتطرفة أول ما اصـطدمت بيهـود أوربا الرمز الأول للكفر والعدو التقليدى للرسالة المسيحية فى نظر أهل العصـور الوسطى من المسيحيين فى أوربا ٠ فمارست الجماهير الثائرة الاضطهاد فى شـتى صوره ضد الجماعات اليهودية فى محاولة « لتطهير البيت من الداخل » ، كما ادعى بعض زعماء الحـركة ، قبل تطهيره من الخارج والداخل هنـا يرمز الى يهود أوربا اما الخارج فهو عالم الاسلام والمسلمين ٠ ووقعت التجمعات اليهودية فى أوربا ضحية الفوضى التى استشرت بين القـوات الصليبية وعدم انتظامها وانقيادها اثناء خروجها من أوربا متجهة الى الشرق فنهبت وخربت كل ما صادفته فى طريقها وكان يهود المدن الواقعة على طريق الحملات الصليبية أول من تعرض لهـذا النهب والسلب ٠ ولم تسلم بعض الجماعات المسيحية من هـذا اذ لم يكن فى قـدرة الجيوش المتحركة التمييز بين اليهودى والمسيحى وهى فى طريقهـا الى الأرض المقدسة وكانت النتيجة ان عرف اليهودى والمسيحى الارثوذكسى حـد السيف الصليبى قبل أن يعرفه المسلم ٠

هذا السلوك من جانب القوات الصليبية المتجهة الى الشرق لا يمكن بأى حال أن يكون ممثلا للموقف الصليبى الرسمى من اليهود فى المجتمعات الأوربية وفى فلسطين · واذا رجعنا الى أقدم الوثائق الصليبية الرسمية وهو خطاب اربان الثانى فى كليرمونت لما وجدنا اشارة واحدة الى اليهود ومن هنا لا نستطيع التأكيد على وجود موقف رسمى من اليهود وأن ما حدث يمكن تفسيره على أنه يرجع الى قوى غير عقلانية ففى حالة جنون من الحماسة المسيحانية خبرت جماهير الصليبيين الشعبية العنيدة اليهود بين الروة أو الموت على حد تعبير براور الذى يقول ان « ما بدأ كتعبير عن شعور دينى سرعان ما تحول الى مذبحة دموية قصد منها القضاء التام على الجماعات اليهودية فى أرض الراين » وهى جماعات قديمة يعود بعضها الى عصر الامبراطورية الرومانية كما نشأ بعضها بناء على طلب بعض الأساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها الى مراكز تجارية بمساعدة اليهود وخبرتهم فى هذا المجال وقد ازدهرت بعض هذه التجمعات اليهودية وبلغت شأوا عظيما فى العلم وظهرت من بينها مدارس لتفسير العهد القديم وتفسير التلمود · وهكذا يبدو انه لم يكن فى صالح النظام السياسى فى أوربا ولا فى صالح الكنيسة ذاتها أن ينتهى الوجود اليهودى فى أوربا · ولكن الكنيسة ومعها الدولة لم يستطيعا الوقوف فى وجه ما يشبه بالثورة الشعبية ضد اليهود ووجدت كراهية اليهود مخرجا لها فى أعمال النهب والسلب التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من كل حملة صليبية خلال مائتى عام ؛ فانتهت جماعات يهودية بأكملها وقتل كثير من اليهود ممن رفضوا التعميد · ومع الحملة الصليبية الثانية وازدياد حركة الاضطهاد ضد اليهود ظهر بين اليهود طقس جديد يسمى طقس الاستشهاد قطع فيه الرجال رقاب زوجاتهم وأولادهم وهم يتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ثم ينتحرون هم بعد ذلك · وبهذا الاضطهاد الصليبى دخل يهود أوربا فى عصور

الظلمـــة التى اســـتمرت فى بعض المناطق من أوربا الى بداية القـرن العشرين ٠

ومن الناحية الدينية حرمت السياسة الرسمية للكنيســـة التعميد الاجبـارى ولم يرض رجـال الدين عن الاضطهاد الواقع باليهود اذ كان يهمهم فى نفس الوقت الاحتفاظ بالعنصر اليهودى كشهادة على الايمـــان المسيحى وانتصار الكنيســة ٠ ولهـذا نجد بعض الأساقفة حاولوا منع جماهيرهم الثائرة من الأضرار باليهود ولم تمنع هذه المحاولات الفردية من اضطهاد اليهود وان كانت قد خففت من حدته فى بعض المناطق ٠ ولكن الجماهير فى حماسها غير العقلى لم تصغ لأوامر الكنيسة ووجدت المبرر لذلك فى خطاب اربان الثانى فى كليرمونت والذى حـــدد العـدو بأنه « الكافر » ٠ وكان المقصود بالكافر هنا المسلمين الا أن الجماهير الشعبية لم تفرق فى الكفر بين اليهود والمسلمين واتخذت شعارها تطهير المنزل من الداخل قبل قتال الكفار فى الخارج وكان لهـــذه الحملة الجماهيرية أبطالـها أمثـــال فـــوكمار Volkmar و جوتشوك Gottschalk واميكو Emicho وغيرها ٠ وقـد أثارت هـذه الأحـداث الحساسيات القديمة بين اليهود والمسيحيين فبمجرد الحديث عن « الكفرة » واعـداء المسيح ورد ذكر اليهود وخطرت على البال احداث العلاقات اليهودية المسيحية القديمة ورفض اليهود لرسالة السيد المسيح عليه السلام بل واتهامهم بقتله ٠٠٠ ولا شك فى ان كل هذه المشاعر ظهرت من جديد مع الدعـــوة الجديدة الى الانتقام من « أعداء المسيح » وطبيعى ان تكون العامة اكثر الجميع حماسة واندفاعا الى الانتقام ٠ وفى هـذا يقول المؤرخ بولياكوف Poliakov أن المـذابح التى تعرض لهـــا اليهـود لم تـكن من فعـل الجيوش الصليبية المنظمة التى قادها البارونات ولكنها كانت من فعـــل الرعاع الذين لا نظام لهم والذين سبقوا الجيوش المنظمة أثنـاء الزحف الى الشرق(٥) وقد وجدت هـــذه الأفعال تشجيعا من بعض الكتاب فى

العصر الوسيط الذين عاصروا الحملات الصليبية فها هو المؤرخ الصليبى Guibert de Nogent يؤكد بل ويشجع على اتخاذ موقف الانتقام من اليهود فيقول : « نحن نريد الذهاب وقتال أعداء الله فى الشرق ولكن أمام أعيننا هنا بعض اليهود وهم جنس أكثر عداء لله من أى جنس آخر »(٦) ويقول Richard of Poitiers : « قبل الرحيل الى هذه الأماكن (يعنى الشرق الاسلامى) قضى (الصليبيون) بالمذابح على كل يهود الغال فيما عدا هؤلاء الذين قبلوا التحول الى المسيحية وقد قالوا (الصليبيون) أنه ليس من العدالة ان نسمح لأعداء المسيح بالبقاء أحياء فى بلادنا وقد حملنا السلاح لطرد الكفار فى الخارج(٧) وما بدأ كثورة شعبية ضد اليهود فى الحرب الصليبية الأولى أخذ شكلا مختلفا مع الحرب الثانية فقد استغل الرهبان الوعاظ من الصليبيين هذا الموقف عقائديا فنجد مثلا Abbe Pierre of Cluny يقول : « ما الفائدة من الذهاب الى نهاية العالم وخسران الرجال والمال لمحاربة المسلمين بينما نسمح لكفار آخرين أذنبوا ألف مرة تجاه المسيح عما فعله المسلمون » (٨) وكذلك قال الراهب Rudolf فى ألمانيا : « فلننتقم أولا للمصلوب من أعدائه الذين يعيشون بيننا ثم نذهب لقتال الأتراك » (٩) . ومما لا شك فيه أنه الى جانب هذه الدعوات الواضحة الى الانتقام من اليهود كان هناك أيضا بعض من دعوا الى حماية اليهود من غضب العامة بل لقد ذهب Bernard of Claivaux الى أبعد من هذا حين استدعى بعض الذين أثاروا العامة للتحقيق مبينا لهم « المخاطر اللاهوتية » لعملهم الانتقامى ضد اليهود : « ألم يخاطروا باثارتهم للقضاء على اليهود بالقضاء على أهل الكنيسة فى هداية اليهود الى المسيحية » (١٠) .

أما عن الموقف اليهودى من الحركة الصليبية فهو فى حقيقة الأمر موقف سلبى للغاية على الرغم من كل محاولات براور لاثبات غير ذلك .

ونحن لا ننكر أن تركيز الكاتب على ما لقيـــه اليهود من اضطهـــادات متواصلة طيلة مائتى عام جعله يتخذ موقفا موضوعيا تجاه المســـلمين الا أنه يغالى عندما يحاول تصوير النزاع على أنه نزاع مسيحى من ناحية واسلامى يهودى من ناحية أخرى فنحن نرى أنه ليس هناك مبرر لاعطاء اليهود دورا مشابها لدور المسلمين فى المعارك الصليبية • وذلك بدليل ان حركة المقاومة ضد الصليبيين التى بدأها المسلمون لم تجذب انتباه يهود الشرق أو يهود فلســـطين بالـــذات فلم يقوموا بدور يذكر فى الصراع السياسى العسكرى الدائر حينئذ بين الصليبيين والمسلمين •

حقـــا لم يفرق الصليبيون بين اليهود والمسلمين فقد كانت النظرة الصليبية الدينية نظرة موحدة تجاه المسلمين واليهود فهم « الكفرة » أعداء المسيح القاطنون فى الأرض المقدسة التى يجب تطهيرها ، خاصة الأماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح ومماته وقيامته ، من دنس اليهود والمسلمين• ولكن هذه النظرة الصليبية الموحدة لا تعطى الكاتب الحق فى التسوية بين دور اليهود ودور المسلمين فى النزاع ، فهو يتغاضى تماما عن السلبية التى اتصف بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها • حتى المقاومة التى أبدتها بعض هذه الجماعات كانت مقاومة سلبية بلغت دروتهـــا فى الانتحـــار الجماعى الذى ارتكبه بعض أفراد من هذه الجماعات هروبا من التعميد الاجبارى وان كان التاريخ اليهودى قد اعتاد ان يطلق على مثل هؤلاء الأفـــراد اســـم الشهداء كمـــا فعل المقاتلين اليهود فى الحرب الرومانية اليهودية ٦٦ ــ ٧٣ ق•م • الذين فضلوا الانتحـــار على السقوط أسرى فى يد القوات الرومانية المحاصرة لقلعة ماسادا ومما لا شك فيه ان هذا الانتحار الجماعى وتفضيل الموت على التحول الى المسيحية تعبير رائع عن مدى قوة الشـــعور الدينى لدى أفراد الجماعات اليهودية ولكنه فى نفس الوقت لا يعد من باب المقاومة التى أوقفت المد الصليبى أو ســـاعدت

على تغير سير الأمور فى ذلك الوقت · وانصافا للحق نقول أنه ربما ان الظروف اليهودية فى أوربا لم تسمح فى ذلك الوقت بقيام اليهود بحركة مقاومة منظمة للاضطهاد الصليبى الذى بدأ كتعبير عن شعور شعبى وانتهى الى سياسة منظمة فالوجود اليهودى فى أوربا كان وجودا ضعيفا من النواحى السياسية والاقتصادية فالأوضاع الاقتصادية بالذات لم تكن تسمح لليهود ان يلعبوا الدور الاقتصادى الذى لعبوه أكثر من مرة وفى ظل ظروف أفضل فى تاريخ العديد من الشعوب ·

ولكن اذا كانت هذه ظروف الجماعات اليهودية فى أوربا فماذا نقول عن يهود الشرق ويهود فلسطين بالذات ؟ لقد كان عليهم أن يلعبوا دورا مختلفا عن دور رفاقهم فى أوربا نظرا لاختلاف ظروفهم · فبما ان المسلمين كانوا هدف الحملات الصليبية وبما ان اليهود كانوا أول ضحايا التحرك الصليبى الى الشرق فهذا يعنى ان واقع الأمر كان يتطلب نوعا من وحدة الهدف تجمع بين اليهود والمسلمين طالما أن العدو مشترك بينهما وأنه كان على اليهود أن يلعبوا دورا ملحوظا فى حركة المقاومة الاسلامية للغزو الصليبى · ولكن واقع الأمور يشير الى غير ذلك فالمصادر التاريخية اسلامية كانت أم مسيحية بل المصادر اليهودية ذاتها لم تذكر شيئا عن محاولات يهودية للوقوف فى وجه الغزو الصليبى سواء باشتراك مع المسلمين أو فى محاولات يهودية فردية ولا يعطى براور فى دراسته عن عالم الصليبيين أية أمثلة عن المقاومة اليهودية على الرغم من محاولة اللاشعورية لخلق دور لليهود · وهناك عبارة ذكرها براور ومرت دون أدنى تعليق من جانبه وهى عبارة تثير الشكوك فى حقيقة الدور الذى لعبه اليهود فى فلسطين وفى القدس بالذات أثناء دخول الجيوش الصليبية الى المدينة المقدسة فقد ذكر براور ان الجيش الصليبى قد دخل المدينة المقدسة من الحى اليهودى · وهذه الواقعة التاريخية تتطلب

ضرورة اعطاء الوصف الكامل للاحداث التى صاحبت سقوط القدس حتى تتضح لنا دلالة هذه العبارة التى ساقها براور وسنستخدم هنا وصف براور نفسه للظروف التى صاحبت سقوط القدس . يقول براور : « وكان الفصل الأخير من الحملة الصليبية حصار القدس الذى استمر خمسة أسابيع (٧ يونيو – ١٥ يوليو ١٠٩٩) وقد استعدت المدينة لحصار طويل نظرا لأن المدينة محاطة بالوديان العميقة من كل جوانبها فيما عدا الجانب الشمالى ونصب الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ولكنهم فشلوا فى اغلاق المدينة من الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) وقد تصوروا ان الحصار سيكون عاديا ولكن سرعان ما اتضح ان قواتهم سوف لا تستطيع تنفيذ مهمتها بسهولة ولم يكن هناك شىء أكثر مناسبة لمناخ هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى سوى حدوث بعض الرؤى الالهية واشتراك القديس جورج فى المعارك ... وهنا كان قادة الحملة الصليبية أبطال مئات المعارك والمقاتلون المحنكون يسألون نصيحة راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة فالغارات الفاشلة على الأسوار وموكب المشاة حولها وتوقع سقوطها كما سقطت أسوار أريحا .. كل هذا أثبت عدم جدواه فقد مضت خمسة أسابيع قبل ان تكون آلات الحصار مستعدة وقد شن هجوم عام فى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصلب التقليدية ، نجح برج المحاصره التابع لجودفراى فى الاقتراب من الجانب الشرقى للسور الشمالى وانزل كوبرى على رأس الشرفات ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى .... »

يتضح من هذا الوصف الذى قدمه براور أن الاستيلاء على القدس لم يكن أمرا سهلا ، وكانتالنتيجة الحتمية انسقطتبقية أركان المدينة للقادة

الصليبيين المحيطين بها · واذا أضفنا الى هـــذا عبارة أخرى فى نفس الصفحة وهى تخص السكان المسيحيين لبيت لحم لأدركنا مـدى سلبيـة كل من يهود ومسيحيى القدس والمدن المجاورة · يقول براور فى موضـع سابق : « وكانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحى من بيت لحم وطلب الحماية فقد أصبح وجودهم مهددا بالتعصب الاسلامى والرغبة فى الانتقـــام وامتطى تانكرد صهوة جواده ليلا وفى الصباح التالى رفرف علم نورماندى على كنيســـة الميلاد قبل ان يدخل أى غربى مدينة القدس المباركة » · ولا ندعى هنا ان موقفا موحدا قد اتخذ من جانب اليهود والمسيحيين فى فلسطين فى ذلك الوقت فالواضـــح ان كل جماعة قد تصرفت بمفردها اذ ليس هناك ما يدعو الى اتحادهما فى هذه اللحظة· والنتيجة التى نصـــل اليها من مثل هـــذه التصريحات هى أن الموقف اليهودى بالذات كان موقفا سلبيا للغاية فى المقاومة والدفاع عن المدينة المقدســـة وان الحى اليهودى كان نقطـــة الضعف التى اســـتفاد منها الصليبيون المحاصرون للمدينه والتى شقوا منها طريقهم الى بقية جوانب المدينة وأسوارها · ومن هنـــا فنحن لا نرى دليلا مقنعا على ان اليهود لعبوا أى دور يذكر فى تاريخ الوجود الصليبى فى فلسطين وانه اذا كان هناك دور فهو سلبى للغاية · كما توضح الأدلة التى سردناها ·

الأسس الدينية للحركة الصليبية

واذا كنا نختلف مع براور فى نظرته للموقف اليهودى من الحركة الصليبية الا أننا نجد أنفسنا متفقين معه فى التحليل الذى يقدمه من خلال بحثه لكى يثبت ان الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية كمـا ادعى أصحابها أو كما يبدو من المظاهر الخارجية للحركة · ومن هـــذا التحليل لدوافع الغزو الصليبى للشرق الاســـلامى يتضـح كيف لبست الحركة الرداء الدينى الذى ظهرت به أمام الجمـــاهير الأوربية لتكسب

عطفها وتأييدها ولتكسب أيضا عون رجال الكنيسة الروحي والمادي في نفس الوقت ٠

والمتتبع للحركة الصليبية منذ بدايتها وانطلاقها الى الشرق يستطيع ان يميز عدة براهين وأدلة على ابتعاد الحركة ومؤسيسها عن أهداف الدين وعلى وجود دوافع سياسية واقتصادية اختفت وراء الدوافع الدينية لكى تحقق مآربها فى ظل حماية الدين وتشجيع رجال الكنيسة ومعونتهم ٠ ومن أول هذه الأدلة موقف الجيوش الصليبية كجيوش ممثلة للمسيحية الغربية من المسيحية الشرقية واتباعها ٠ فهذا الموقف يؤدى الى الاعتقاد فى أن القضاء على مسيحية الشرق كان أحد أهداف الغزو الصليبى ولا تكون مغالين اذا ألحقنا أتباع المسيحية الشرقية الى قائمة « الكفرة » الذين تحدثت عنهم المصادر التاريخية الصليبية ٠ ويبدو من سلوك القوات الصليبية المنظمة وغير المنظمة فى المناطق المسيحية التى تم فتحها فى الطريق الى الشرق الاسلامى أن هذه القوات لم تكن ملتزمة بسلوك مسيحى أخوى تجاه السكان المسيحيين ٠ وحتى قبل ان تخرج هذه القوات من أوربا بدأت فى نهب السكان وسلبهم بمجرد انتهاء المؤن وقد حدث هذا فى فرنسا والمانيا وبوهيميا وفى المجر والبلقان حيث تصرفت الفرق السائره كجيش غاز فى مقاطعة العدو مما اضطر أهل المجر مثلا الى تنظيم المقاومة المسلحة والدخول فى معارك ضد الجماعات الصليبية التى قامت بأعمال السلب والنهب ٠ كل هذا والقوات الصليبية لا تزال تسير فى أرض مسيحية غربية ، ويزداد الأمر سوءا مع دخول القوات الصليبية إلى أرض المسيحية الشرقية ففى البلقان ، وهى من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، اصطدم الصليبيون باختلاف العادات الدينية وغير الدينية واختلاف اللغة ٠٠ وقد حول هذا لقاء مسيحية الغرب بمسيحية الشرق الى واقعة عسكرية على حد تعبير براور ولجأ البيزنطيون

الى وسائل عدة للتخلص من أعمال السلب والنهب فأمدوا الصليبيين بالطعام والمؤن حتى يتجنبوا شرهم بل ولجأوا الى ارسال قوات تكونت غالبا من الأتراك الذين يعملون فى خدمة البيزنطيين لقمع عصابات النهب الصليبية وأصبح الطريق الى القسطنطينية تميزه القرى المحترقة والمدن المنهوبة والجثث الملقية على قارعة الطريق ٠٠ الى هذا الحد عانت بيزنطة من سوء سلوك الفرق القادمة من الغرب المسيحى والتى كان من المفروض انها قادمة لنجدة بيزنطة والمسيحيين بها ٠ وقد نجح الامبراطور الكسيوس كومينيوس فى ان ينتزع وعداً بالحفاظ على حقوق امبراطوريته فى الغزوات الصليبية التالية داخل المقاطعات البيزنطية السابقة ٠ وقد اضطر الامبراطور الى استخدام الحيل والتهديدات والرشوة للحصول على هذا الوعد بعد أن أمد القوات الصليبية بالمرشدين وبالمال والامدادات ونقلهم عبر المضايق الى الأراضى الآسيوية ٠

وقد أشار سير الاحداث فيما بعد الى ان الصليبيين لم يكونوا جادين فى اقامة تحالف مسيحى مع بيزنطة مع أن بيزنطة أبدت منذ البداية استعدادها للتعاون وكان اسطولها على استعداد للتحرك الى مصر ٠ ولم يدم التحالف طويلا فقد اعتقد الصليبيون انهم يستطيعون بمفردهم احراز النصر والانفراد بالمكاسب ٠ ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد طمع الصليبيون فى أملاك بيزنطة وسعوا الى ضمها لاملاكهم ٠ وقد أقنع الكسيوس الرابع انجيلوس الصليبيين فى الحملة الرابعة بغزو القسطنطينية واعادته الى السلطة واعدا القادة الصليبيين بوضع موارد بيزنطة تحت تصرفهم بالاضافة الى مكافأة مجزية للجيوش وقد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفسها فى بيزنطة فتتم لها بهذا السيادة على أعظم المراكز التجارية فى العالم ٠ ولم يكن هذا القرار المتخذ ضد القسطنطينية ممكنا لولا العداء الموروث بين الغرب والامبراطورية البيزنطية والذى بدأ ظهوره خلال الحملة الأولى ثم سرعان

ما تحول الى عداوة صريحه خلال الحملة الثالثة عندما اتهمت بيزنطة صراحة بالتستر على صلاح الدين · ويعتقد براور أن الفكرة الأساسية ربما كانت أجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمساعدة المملكة الصليبية الا ان الحملة غيرت من هدفهـــا بعد حلول الصليبيين فى القسطنطينية وعندما لم ينفذ الكسيوس الرابع انجيلوس وعـــده عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل ١٢٠٤ وتأسست مملكة القسطنطينية اللاتينية وأصبح بلدوين أول امبراطور للمملكة الجديدة وأصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها وقســـمت الامبراطورية ، مثلها مثل كل الاســـلاب ، بين المنتصرين ·

اذن كان تقويض الوجود البيزنطى المسيحى أحد الأهداف الأساسية للحركة الصليبية ولأن هـذا الهدف لم يكن معلنا عنه فى أوربا فقد أثار هذا السلوك الصليبى تجاه بيزنطة المسيحية غضب الرأى العام الأوربى للهجوم الذى شنه الصليبيون على الامبراطورية المسيحية حيث فضـــل الكثيرون الرحيل الى القسطنطينية الغنية والأقل خطـــورة من الوجود الصليبى فى الأرض المقدســـة · ولم يتوقف الأمر عند هـــذا الحد من الاخضاع السياسى لبيزنطة ولكن بدأ تدهور الوجود المسيحى الارثوذكسى وتعرض للخطر بسبب الوجود الصليبى · ولنأخذ مثالا على ذلك بالطائفة اليونانية التى كانت من أكبر التجمعات المسيحية فى الشرق وقد تركزت قوتها فى المقاطعات الشمالية وبخاصة فى انطاكية وكان لها وجود قوى فى المملكة اللاتينية فى فلسطين وكانت كنيستها قبل وصـــول الصليبيين من أغنى الكنائس المسيحية فى الشرق وأكثرها نظاما تحت الحكم الاسلامى ومن المحير أن الصـــليبيين الذين أقســـموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام يتحولون الى منافسين على الحكم ويصارعون من أجل وضع المسيحيين الشرقيين تحت سيادتهم السياسية ووضع الكنيســـة الشرقية تحت سيادة الكنيســـة اللاتينية · فاليونان

لم يكونوا هراطقة من الناحية العقائدية بل كانوا فى رأى اللاتين منشقين فقط ومنفصلين عن روما مؤقتا كمـــا تعشـــم اللاتين الذين لم يكونوا يتصورون موقفا يكوتون فيه تحت سيادة رجال الدين اليونان · كما لم يكن ممكنا على أساس لاهوتى تصور قيام سلطة دينية موحدة يونانية لاتينية · ونتيجة لهـذه التطلعات حل بطريرك لاتينى مكان البطريرك اليونانى فى انطاكية والقدس بعد الغزو الصليبى مباشرة كما خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية اليونانية واعلنوا خلو الكراسى الأسقفية ثم عينوا أساقفتهم وطالبوا رجال الكنيسة اليونانية بالاعتراف والخضوع للبطاركة والأساقفة اللاتين الجدد ·

وقد أدت هذه القرارات الى زيادة حدة الصراع الدينى بين اليونان واللاتين واضطر رجـــال الدين اليونان الى الانســـحاب والرجوع الى القسطنطينية بعد حرمانهم من كراسيهم الأسقفية وتوالى وصـــولهم الى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى هزمها الصليبيون بينما بقيت الطبقات الدنيـــا من رجـــال الدين فى المقاطعات الصليبية معلنة خضوعها الأسمى للكنيسة اللاتينية · وقد مرت الكنيسة اليونانية بمرحلة تدهور فى ظل الحكم الصليبى حيث تعرضت للاضطهاد الصليبى المستمر · ومن وجوه هذا الاضـطهاد ان تأسيس الكنائس اللاتينية فى الشرق كان يصحبه عادة اتلاف وتخريب الكنائس اليونانية · وقد اتضح هـــذا فى الكنائس الكبيرة وفى المدن بالذات وقد وجدت هذه الأعمال تبريرا لها فى ان اللاتين هم الوريث الشرعى للاملاك اليونانية السابقة كما اعتقد ·

وبالاضافة الى هذا الموقف الذى اتخـذه الصليبيون من الكنائس الشرقية عامة ، على الرغم من دعوى تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الاسلام ، نجـد كثيرا من المظاهر التى تعطى لنـا صـورة عن الافلاس الايديولوجى للحركة الصهيونية والاضـطراب المعنـوى الذى عانى منه

الصليبيون والذى يدل فى نفس الوقت على ان الاسس الدينية التى ادعاها القادة الصليبيون أسس واهية كما ان شعار تحرير الأرض المقدسة لم يكن الا شعارا زائفا سقط عند أول اختبار · فالطريق الطويل الشاق الى الشرق والوان المعاناة والأمراض التى عانت منها القوات الصليبية خاصة خلال حصار أنطاكية ·· كل هذا سبب نوعا من الاضطراب المعنوى بين صفوف الصليبيين فنشبت الصراعات بين قادة الصليبيين وظهرت اطماعهم الحقيقية حيث بدأت التحديات بين بوهيموند مخطط نصر انطاكية وريموند حيث ادعى كل منهما المدينة لنفسه متجاهلين الاتفاق المعقود مع الامبراطور البيزنطى · وأثناء هذا الصراع انطلق القادة الصليبيون والرؤساء والفرسان الى الريف المجاور لانطاكية كل يحاول ان يحصل لنفسه على بعض الأملاك الخاصة ونظرا لضعف مقاومة الوطنيين سرعان ما أصبحت القرى والمدن وقلاع افرنجية وقد اعجبتهم الحياة فى انطاكية وضواحيها أضحت اقامة دائمة وساد الاحساس بأن انطاكية قد حلت محل القدس كما ان نهر العاصى اخذ مكانة نهر الأردن فى عيون الصليبيين · ولولا يقظة المستويات الشعبية من أفراد الصليبيين وحماسهم الدينى الذى أدى الى ثورتهم ضد زعمائهم وقادتهم لاستقر هؤلاء فى انطاكية وأصبحت نهاية المطاف بالنسبة لهم ؛ اذ لم يتنازل القادة عن أطماعهم وصراعاتهم الا عندما هدد فقراء الصليبيين بحرق انطاكية وهدم أسوارها اذا لم تتحرك الجيوش الى القدس ·

نتيجة لهذه المواقف التى اتخذها القادة الصليبيون بدأت تظهر فى أوربا موجة من التذمر بسبب سلوك الصليبيين تطورت الى نقد شديد للحركة أخذ الطابع الهجومى فى البداية ثم تحول بعد ذلك الى تحليل جاد للأزمة الايديولوجية التى وقعت فيها الحركة وقد بدأ البعض يتساءل عن الالهام الالهى الذى ادعاه الصليبيون وفى ظل هذا النقد بدأ الاستعداد للحملة الرابعة التى أشارت أكثر من غيرها الى عمق الافلاس الايديولوجى

للحركة فقد أثبتت الحملة الرابعة أكثر من غيرها ان الاطماع المادية هى التى تحرك القادة الصليبيين فبعد سنوات من الاستعداد تجمعت قوات الصليبيين فى البندقية وبعد عام تم حصار القسطنطينية المسيحية وبدأت حملة من الاتهامات والاتهامات المضادة بين قادة الجيوش الصليبية ٠ ولا يزال المؤرخون يبحثون عن الأسباب التى دفعت بالقوات الصليبية الى الاستيلاء على القسطنطينية المسيحية وهى ليست هدفا للحملة وليس هنا سبب واضح سوى أطماع القادة وخاصة بارونات الشمال بالاضافة الى الاطماع الخاصة بالبنادقة حيث أصبح بلدوين أول امبراطور لمملكة جديدة هى مماكة القسطنطينية اللاتينية كما أصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى للمدينة كما أسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر ايجة على حساب القسطنطينية المسيحية ٠

وتعطينا الحملةالخامسة مثالا آخر ٠ فقد وضحتهذه الحملة الصراع الخفى بين الكنيسة والدولة والذى تمثل فى التحدى الصارخ لسلطة البابوية والذى أبداه الامبراطور فردريك الثانى ٠ فقد حمل فردريك القسم الصليبى منذ عام ١٢١٥ م ولكنه ظل يؤجل حملته عاما بعد عام مدعيا اعتلال صحته ووجود مشاكل تواجه حكمه فى مملكة صقلية وفى الامبراطورية ٠ وأخيرا عزم فردريك الثانى على البر بقسمه ولم يكن هناك مفر من ذلك لأسباب عدة منها قسمه الصليبى وكونه امبراطورا فى عالم مسيحى ثم لقبه كملك القدس من خلال زواجه من ازابللا وريثة المملكة ٠ وهكذا فرضت هذه الحملة نفسها فرضا على فردريك الثانى وقد زادت الظروف السياسية من غرابة هذه الحملة فقد حدث ان تبرم البابا جريجورى التاسع من تقاعس فردريك الثانى وعدم بره بما حمله من أقسام صليبية فأصدر قرارا بحرمان فردريك الثانى وقد كان هذا ، على حد تعبير براور ، الفصل الأول فى مشهد غريب : الامبراطور المحروم حاكم العالم المسيحى يقود حملة صليبية الى الشرق ٠ ومن هنا

فقد تصرف فردريك الثانى بطريقة لا تظهر أى التزام بالكنيسة أو احترام للسلطة البابوية اذ اتصل فردريك الثانى بالملك الكامل حاكم مصر فى محاولة للدخول معه فى معاهدة وأدى نجاحه الى زيادة غضب البابا وتقدم فردريك الثانىالى القدس واستولى عليها دون اشتراك قوات النظم العسكرية وقد أسكتت أجراس المدينة وأصبحت المدينة المقدسة مدينة محرمة لان فاتحها ملك حكمت عليه الكنيسة بالحرمان · ومع عودة فردريك الثانى الى أوربا رفع عنه البابا قرار الحرمان الا ان المملكة الصليبية عانت الأمرين من الصراع بين ممثلى الامبراطور وممثلى البابا والاستقراطية الصليبية · وبدأ تحلل المملكة داخليا وتحولت الى اقطاعية كبيرة فى يد قلة حاكمة ·

وهكذا وضحت الحملات الصليبية بصفة مستمرة عدم التناسق بين الدين والدولة وتصارع المثل الدينية والأطماع العلمانية وتفاقم النزاع بين البابوية من ناحية وحكام المملكة الصليبية من ناحية أخرى بالاضافة الى اظهار الصراع بين الوافدين الجدد من الصليبيين مع كل حملة صليبية جديدة والارستقراطية الصليبية التى استقرت فى المملكة منذ الحملة الأولى وكيف ان الحكم قد تركز فى يد أقلية اقطاعية حاولت ان تقيم فى الشرق ما لم تستطع تحقيقه فى بلادها · فقد تكالب الحكام الصليبيون على انشاء الأقطاعيات الجديدة فى أرض بعيدة لأمراء ونبلاء ازدحمت بهم أوربا ولم يجدوا مكانا داخل النظام الاقطاعى الأوربى العتيد ·

وبالاضافة الى هذا توافرت بعض الأمور الأخرى التى تجعلنا نحكم على الحركة الصليبية بأنها لم تكن حركة دينية أصيلة ولكنها كانت حركة سياسية معبرة عن واقع أوربا السياسى فى ذلك الوقت لبست رداء الدين لتحقق مطامع سياسية اقتصادية ولتفتح المجال أمام نبلاء أوربا وترفع من شأن الاقتصاد الأوربى فى نفس الوقت · ومن هذه الأمور التى تثير

الشك حـول الأصول الدينيـة للحركة الصليبيـة أنه من بين الاقطاعيات العديدة التى تم تكوينها فى المملكة الصليبية فى فلسـطين لم تنشـأ اقطاعيات دينية تناسب الادعاء الدينى والمسـاندة البابوية للحمـلات الصليبية وتوافق الشكل الدينى الظاهرى الذى أخذته الحركة والشعارات التى تشدقت بها من تحرير للارض المقدسة واستعادة بيت المقدس وتأديب « الكفرة » الى آخره من النداءات التى أعطت الحركة شكلها الدينى الذى ظهرت به أمام الرأى العام الأوربى · وهنا يجب ان نشير الى أنه كان من المتوقع بعد قيام المملكة الصليبية أن نرى المملكة تنظم على شكل يعكس الدعاية الدينية السابقة للحركة ويعبر عن الدعوى الدينية التى انطلقت الحملة الصليبية لتنفيذها ولكن ما حدث عدم جدية هذه الدعوى وظهرت الايديولوجية الصليبية على حقيقتها وتم الاستغناء تماما عن كل التطلعات المسيحانية والآمال الكنسية وبدأت عملية تنظيم شـؤون المملكة الجديدة فى الأراضى المهزومة على أساس النظام الاقطـاعى الأوربى فقد نظم الصليبيون دولتهم وفقا للتراث الذى نقلوه معهم من أوربا على الرغم من ان الظروف الاقتصادية الجديدة هيأت للقادة الصليبيين فرصة الابتعاد عن تطبيق النظام الاقطاعى الأوربى فى الشرق · فبعد جيـل كامل من الصعوبات والمشاكل نتج عن ادخال الاقطاع كنظام حكومى أن قسـمت المملكة الى عدد من الاقطـاعيات الاميرية التابعة للتاج فى القدس وكان واضـحا منذ البداية ان اللوردات والبارونات الصـليبيين كانوا أكثر انتظاما وتدريبا من رفاقهم الأوربيين نتيجة لحـالة الطوارىء المستمرة من ناحية ونظرا للبنـاء الاجتماعى الغريب لنبلاء الصليبيين حيث ان معظم الذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون أصلا الى البيوتات الكبيرة من بيوتات نبلاء أوربا بل كانوا فى معظم الاحوال من طبقة فرسان أقل فى نبالتها من طبقة النبلاء الذين اغتصبت بهم بلاطات الحكام الأوربيين · وقد سهل هذا مهمة الحكم اذ لم يجد الملك الحاكم فى

القدس معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من الوجود الصليبى · وظلت الاملاك والاقطاعيات الملكية واسعة وغنية · ولكن الظاهرة الغريبة هى انه على الرغم من الدوافع الدينية التى ادعاها الصليبيون خلت المملكة الا من القليل جدا من الاقطاعات الدينية وقد كانت على قلتها صغيرة وفقيرة ومحصورة فى بعض بقاع من اللد وبيت لحم والناصرة ·

ومن الأمور الأخـــرى التى تؤكد علمانية الحركة الصليبية غياب التبشير الدينى بين سكان فلسطين من ملسمين أو يهود فالادارة الصليبية لم تبذل اى جهد يذكر فى هـــذا الاتجاه · ولا شك ان الرغبة فى تحرير الأرض المقدسة من قبضة « الكفرة » كان لابد وان تتلوها محاولة تحويل هؤلاء « الكفرة » وهدايتهم الى المسيحية لو كانت هذه الرغبة أصيلة فى نفوس القادة الصليبيين · ولكن الظاهرة الواضـــحة أن الصليبيين فى الأرض المقدسة لم يهتموا بالتبشير للمسيحية بل لقد عزلوا عن الوطنيين ولم يختلطوا تهم اجتماعيا وتركوهم لشانهم فيما يتعلق بادارة شـؤونهم الداخليـــة ولم يفرضوا عليهم اى نظام خارجى فيما عدا بعض الأمـور المتعلقة بالحكم والادارة · وقد كان هـذا قرارا خطيرا كان من نتيجته هجر اى عمل تبشيرى منظم على مستوى المملكة ككل بين المســلمين أو اليهود أو حتى بين المسيحيين الشرقيين · وهذا هو السبب المباشر فى أن الأرض المقدسة ، على الرغم من وقوعها تحت السيادة الصليبية الا انها لم تصبح مسيحية · فقد ظل غالبية سكان غير مسيحيين · ويعلق براور على هذه الظاهرة التى يعتبرها غريبة بقوله : « ومرة أخرى يصطدم المثال بالواقع ويعلى الواقع شروطه القاسية للاستسلام · فقد كانت هناك فرصة ان تعود الساعة ثلاثة مائة عام الى الوراء · ويعاد خلق الدولة المسيحية كما وجدت تحت الحكم البيزنطى قبل ان يقهرها الفرسان البدو القادمون من أعماق الصـــحراء ليقيموا الحكم الاســـلامى · ولكن الصليبيين لم يستغلوا هذه الفرصـــة فالتحويل الى المسيحية لم يكن ابدا هدفا من

اهداف الصليبيين ولا جزءا من برنامجهم كما لم تسمح موجات الهجرة الأوربية بالتغطية على السكان الوطنيين » ٠ والحقيقة أن سياسة عدم التدخل فى شؤون الوطنيين التى اتبعتها الادارة الصليبية أدت الى عدم احداث أى تغيير جذرى فى النظام الادارى الاسلامى السابق على قيام المملكة الصليبية ومن الناحية الدينية ضمنت الجماعات الدينية والطوائف المختلفة استقلالها الدينى فى ظل الحكم الصليبى ٠ وقد ساعد على ذلك غياب الاهتمام الدينى لدى جماعات الصليبيين وخلو غزوهم من الهدف التبشيرى هذا وان لم تسلم بعض الطوائف من مضايقاتهم كما ذكرنا من قبل ٠

أما التبشير كحركة منظمة فلم يبدأ الا بعد قرنين من سقوط عكا ومع اكتشاف العالم الجديد ٠ ومع ذلك الوقت كانت فكرة الحرب الصليبية قد ضعفت وانتهى عهدها ولكنها لم تمت تماما حيث استمر العداء بين الغرب والشرق ولكن الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من هجوم مسلح على الاسلام الى حرب للدفاع عن المسيحية ضد قوى الاسلام المحيطة بها خاصة وان الاسلام فى ذلك الوقت كان يمثله العرب من أهل الشرق والأتراك العثمانيين أيضا ويمكن القول هنا بأن هذا التغيير ربما كان تأثيرا اسلاميا مباشرا على التفكير المسيحى حيث اقتبس المسيحيون فكرة الجهاد الاسلامية ولا تستطيع تحديد الفترة الزمنية التى تم فيها اقتباس هذا المبدأ الاسلامى اذ من الممكن ان يكون المسيحيون فى أوربا قد عرفوه من اختلال احتكاكهم العسكرى بالمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية وربما كان أيضا من نتائج الاحتكاك المسيحى بالاسلام فى الأندلس ومهما كان الأمر فان المواجهة الجديدة بين المسيحية والاسلام ارتبطت بحركة التبشير التى كانت عنصرا غائبا فى سياسة الصليبيين ٠ ويمكن القول بأنه اذا كانت الحركة الصليبية قد هجرت التبشير بين المسلمين الا أن الحركة التبشيرية التى بدأت بعد ذلك كانت واحدة من

النتائج غير المباشرة للحركة الصليبية · ففشل هـذه الحركة وافلاس الايديولوجية الصليبية والنقد اللاذع الذى تعرض له الصليبيون ·· كل هذا كان له دوره الهام فى وضع نهاية للحروب الصليبية ولكنها لم تضع نهاية للعداء بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى · وقد تسبب هذا النقد فى تحويل العلاقات المسيحية الاسلامية من علاقات حرب علنية لا تبشير فيها الى حرب تبشيرية علنية · فقد عارضت الطبقة الأوربية المثقفة الايديولوجية الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثانية وبدأت توجه نقدها لقادة الحركة ولتورط البابوية فيها والى جانب المثقفين عارض كثير من النساك والرهبان والمتدينين من المسيحيين سياسة الحملات الصليبية المتتالية ورأوا فيها انتهاكا لرسالة الحب والسلام التى هى من صلب الدعوة المسيحية وأبدوا شكوكهم فيما ادعاه الصليبيون من الهام الهى لحركتهم وذلك لأن سفك الدماء يناقض التعاليم الانجيلية · ومن داخل هذا النقد بدرت فكرة جديدة وهى التبشير بالاناجيل للمسلمين وتحويلهم سلميا الى المسيحية · وقد بدأت هذه الحركة التبشيرية بحملة علمية ترجم القرآن الكريم على اثرها الى اللاتينية حتى يتمكن علماء الغرب المسيحى ورجال الدين من قراءته وفهم الاسلام للرد عليه ومهاجمته وسرعان ما انشئت مدارس اللغات الشرقية فى الجامعات المشهورة فى أوربا فى ذلك الوقت لمعرفة لغات العالم الاسلامى واللغة العربية على وجه الخصوص وقد خرجت هذه المدارس أجيالا متعاقبة من المبشرين والوعاظ الذين حملوا رسالة التبشير وانتشر الدومنيكان والفرنسيسكان فى ربوع العالم الاسلامى يبشرون ويعظون ويجادلون ويعمدون بادئين بهذا حركة تبشيرية واسعة النطاق أرادت غزو العالم الاسلامى بالكلمة بعد أن فشل السيف فى فرض السيادة الغربية المسيحية ووضعت أساسا نظريا علميا للمواجهة مع الاسلام بدلا من المواجهة العسكرية التى تبناها الصليبيون ·

وبعد ٠٠ فقد قدمنا فى الصفحات السابقة بعض المظاهر التى دللنا بها على عدم صحة الدعاوى الدينية التى تبناها زعماء الحركة الصليبية فى محاولة منا لاثبات الاسس السياسية الاقتصادية للحملات الصليبية وبقى ان نضيف الى هذه الأدلة آراء علماء اللاهوت والمفكرين المعاصرين للحروب الصليبية فى صلاحية هذه « الحملات العسكرية وشرعيتها والحق ان أشهر رجال اللاهوت المسيحى فى العصر الوسيط أمثال لومبارد Lombard واكويناس Aquinas وبونافنتير Bonaventure لم يتعرضوا فى كتاباتهم اللاهوية لمسألة شرعية أو عدم شرعية الحروب الصليبية ٠ ولا نعلم ان كان هذا الصمت من جانبهم يعنى موافقتهم على الدعائم الدينية التى استندت اليها الحركة الصليبية حتى أن أحد رجال الدين المسيحى المعاصرين وهو الأب ادوارد سنان علق على هذا الأمر بقوله : « انه اذا كان معظم المسيحيين المعاصرين يعتبرون الحروب الصليبية فضيحة فان غياب الحديث عنها فى الأعمال اللاهوتية العظيمة فى العصور الوسطى يسبب لنا بعض الاضطراب » (١١) ويوجه سنان نقده بالذات الى توماس اكويناس اذ كان من المتوقع ان يتعرض اكويناس لموضوع الحروب الصليبية فى عمله الرئيسى Sumna Theologia ٠ وكان أخوه الأكبر ايمون Aimone قد انضم الى صفوف الصليبيين واشترك فى حملة فردريك الثانى ووقع فى الأسر عام ١٢٣٢ والغريب أن المسيحيين فى قبرص هم الذين أسروه وطلبوا منه فدية وقد توسط له وانقذه البابا جريجورى التاسع فى ١٢٣٣م ولتوماس اكويناس أخ آخر يدعى رينالدوس Raynaldus وهو من التروبادور وقد انضم الى البابا ضد الامبراطور ودفع حياته ثمنا لولائه للبابا ٠٠ كل هذه الأسباب كانت كافية لكى يهتم توماس اكويناس بالحروب الصليبية ولكنه تجاهلها تماما والاشارة الوحيدة اليها تبين انه كان يعتبر الحروب الصليبية أمرا لا غبار عليه ففى هذه الاشارة يدافع

اكويناس عن حق نظم الرهبنة العسكرية كفرسان الداوية Templars والاستبارية Hospitallers فى الوجود على أساس ان الكنيسة اعتادت ان تفرض على الراغبين فى التوبة فرصة الاشتراك فى حملة لمساعدة الأرض المقدسة ويعتبر الموت بعد العودة من الأرض المقدسة والوفاء بالقسم الصليبى أفضل من الموت أثناء الذهاب · وينتهى الباحث الى ان الراغب فى معرفة الآراء الخاصة بشرعية الحروب الصليبية عليه ان يبحث عن ذلك بعيداً عن كتب اللاهوت(١٢) ·

وقد لقيت الحروب الصليبية معارضة من الرأى العام الأوربى عبر عنها فى كتابات مختلفة ففى The Würzburg Annals لعام ١١٤٧ نقرأ : « قضى الله على الكنيسة الغربية ان تعذب بذنوبها لأن بعض الأنبياء الكذبة ··· أساءوا هداية المسيحيين وأغروهم بالكلمات الخاوية والوعظ الباطل وأجبروا كل الجنس البشرى على الخروج ضد المسلمين من أجل تحرير أورشليم »(١٣) ويعلق Gerhoch of Reihersberg على خسائر الحملة الثانية بين الفرق الألمانية والفرنسية من الجيش الصليبى متعجبا بقوله : « أورشليم ··· أورشليم ·· التى قتلت ورجمت الأنبياء الذين أرسلوا اليها ·· ماذا كنت تنوين فعله لتزيدى قتلى جدد ، من المسيحيين هذه المرة ، الى القتلى القدامى » (١٤) ومن النقد الذاتى نجد أحد المسؤولين عن الحملة وهو Abbot Bernard of Clairvaux يقول معلقا بعد فشل الحملة : « ··· الرب أثارته ذنوبنا فأدان العالم قبل الأوان وقد أدانه فى عدالة ولكن بدون رحمة اذ انه لم يبق على شعبه ولم ينقذ اسمه أليس يقولون بين الأمم : أين هو الههم ؟ » (١٥) ·

وبعد عامين من سقوط القدس كتب رالف نجر Ralph Niger حوالى ١١٨٩م ينقد الاستعداد للحملة الصليبية الثالثة للأسباب التالية وهى أن الالحاد والهرطقة فى أوربا تهدد الديانة المسيحية أكثر من

خسارة أورشليم الأضية فى فلسطين ويقول : ما الفائدة ان تبنى أورشليم الأرضية بينما امنا صهيون تنهار وما الفائدة ان تتحرر فلسطين من المسلمين وينتشر شر الكفر فى الداخل وبينما نهاجم الكفر فى الخارج تداس طهارة الايمان تحت الأقدام ويسخر بها فى الداخل » (١٦) ورالف هنا يشير الى حركات الالحاد والهرطقة التى انتشرت فى أوربا فى ذلك الوقت والتى اعتبرها أكثر خطورة على المسيحية من خطر الاسلام · ويعطى رالف سببا آخر يتعلق بمعنويات السكان المسيحيين فى فلسطين فقد تدهورت أخلاقياتهم وأصبحت حياتهم الدينية لا تتعدى المظاهر الشكلية لأسباب كثيرة منها الثراء الفاحش والترف الذى ينعم فيه رجال الدين وبخاصة البطريرك الذى جاء على حد تعبيره يشحذ فى الغرب لمساعدة المسيحيين ضد المسلمين وهو نفسه غير مستعد لرفع أصبع أو ان ينفق من ماله الخاص ضد المسلمين · لقد فقدت الأماكن المقدسة فى رأى رالف بسبب ذنوب المملكة اللاتينية ومنها الخيانة والتعاون مع العدو المشترك لدرجة تسليم صليبيين غربيين اليه · والسبب الثالث الذى يقدمه رالف هو ان فلسطين أصبحت ملجأ لمجرمى الغرب والهاربين من العدالة ولم يمدح رالف أحدا فى المملكة اللاتينية فى الشرق سوى النظم العسكرية أما البقية فتستحق ما وقع بها من مصائب فى فلسطين ، أما بالنسبة للمسلمين فقد تحدث رالف فى صالحهم وضد شرعية الحروب الصليبية فهو يقول « ربما كان أمن المسلمين وسلامتهم من ارادة الله وذلك لان الارض جميعها ملك لله يعطيها لمن يشاء ويأخذها ممن يشاء » (١٧) · ولا يعنى هذا أن رالف لا يود هزيمة المسلمين ودخولهم فى المسيحية ولكنه ساخط على السلوك الصليبى واستخدام الحرب كوسيلة لقهر المسلمين · وينصح رالف بضرورة غزو المسلمين بالكلمة حتى يدخلوا المسيحية عن طواعية « لأن من يسعى لنشر الدين بالقوة والضعف فهو يذهب بعيدا عن الدين بالاضافة الى ان الله لا يريد موت الآثم والمسلمون

بشر مثلنا ومن المعقـــول ان نرد هجومهم ولكن يجب ان نكون معتدلين فى ذلك » (١٨) وينقد رالف أيضـــا زعمـاء الحركة الصليبية ويسميهم الأنبياء الكذبة ويتهمهم وعلى رأسهم القديس برنارد بأنهم سبب الدمار الذى نتج عن الحملة الثانيـــة والخطر الذى تعرضت له الأرواح ويعتبر الحملة الصليبية الثانية حملة لم يباركها الله كمـا لم يبارك حملة آحاب الذى سار حسب نصيحة الأنبياء الكذبة ويوجه نقده أيضـــا الى رجال الدين فيقول ان رجال الدين لا يحق لهم الذهاب مع الحملة لانهم لا فائدة منهم فى الحرب بالاضـافة الى العبء الذى يمثلونه على الجيش المقاتل فهم لا يفعلون شيئا ويلتهمون من الطعـــام ما يجب ان يكون من نصيب الجنود المقاتلين · ويواصل رالف نقده للنظام الصليبى فينصـح ان تبقى النســاء فى بلادهن ولا ترحلن الا بعـد ان تظهر نتـائج الحمـلات وهن بلا شـك عنصر ضرورى لتعمير البـلاد المفتوحة · كما ان الفقراء يجب ألا يذهبوا لانهم أيضـا عبء ولا يستطيعون تسـليح أنفسهم أو امـداد أنفسهم بالمؤن الكافية · أما عن قدامى الفرسان فذهابهم أيضا ليس ضروريا فهم وان كانوا يعطون للحملة الهيبة والشرف الا انهم بدون منفعة ويجب عليهم البقاء فالشباب من الفرسان أكثر نفعا وأكبر قدرة على القتال ·

وواضح من هذا النقد الصريح للحملات الصليبية ان رالف لا يوافق أساسا على سياسة الصليبيين العسكرية ولكنه يعلم ان رفضه لا تأثير له على زعماء الحركة فيكتفى بتقديم النصيحة ويطلب اجـراء تغييرات جذرية فى سياسة النظام الصليبى فالحرب فى نظره للفرســـان الشباب ولا مانع ان يذهب الى الشرق عدد قليل جدا من رجال الدين لادارة الأمور الدينية للجيش وهو يتعجب ساخرا لماذا يذهب كل هذا العدد من رجـال الدين « لرعاية واحدة من النعاج فى الخارج بينما يوجد فى داخل البلاد تسعة وتسعين نعجة » (١) · وهكذا عبر رالف بالنيابة عن عصره عن عمق الهاوية التى سقط فيها الصليبيون · وقد تحدث رالف ضد عالمه

كله فى نفس الوقت الذى كانت تستعد وتجتمع فيه قوى الحملة الصليبية الثالثة · ويعلق الأب ادوارد سنان على تحليل رالف النقـــدى للحركة الصليبية فيقول « انه لأول مرة ـ حسب علمنا ـ يعطينا مسيحى لاتينى رأيا معقولا عن لمـــاذا كانت عبارة « الله يريدها » فى عام ١٠٩٥ مثارا للتســاؤلات وربمــا يجب علينــا اعــادة صــياغة هــذه العبارة لتصبح « الله لا يريدها » "Deus non vult" (١٩) ·

د· محمد خليفة حسن

الهرم أغسطس ١٩٧٩ م